الفصل الأول

ما هو الحج
وكيف يتجاوزه الحاجّ بسلام؟

الحج وقتٌ للتجمُّع والانتظام، إلا أنه أيضاً وقتٌ للَّغَط والفوضى. وهو من الناحية الروحية تجربةُ تمكين وترسيخ، يعيد من خلالها الحجيجُ روابطهم بمجتمعٍ عالميٍّ وحيد، يبعثونه متجدِّداً كلّما تجدَّد الاجتماع، ويعيشون مصيراً مشتركاً يصل إلى ما هو أبعد من حياتهم وتصوُّراتهم المحدودة. على أن الحج من الناحية الجسدية يجعل المرءَ عرضةً لشعورٍ بالخطر وترقُّبِ المجهول؛ فعلى مدى شهر على الأقل ينسلخ الحاجُّ عن كلِّ مألوفٍ لديه، ويفقد إحساسه بوجهته عند كل منعطف، وربما كان هدفاً لمخاطر لا حصر لها - بعضها محتومٌ لا سبيل إلى اجتنابه، وبعضها الآخر من صنع يديه - وبذلك فلا مكان للاعتقاد بأن الحاجَّ هو بمنزلة ممثِّلٍ مرتحلٍ بنفسه متحكِّمٍ في قَدَره.

وأول ما يعرض للحاج إحساسُه بالزمن؛ إنه دائم الدهشة مما يخلِّفه الزمنُ في عقله وجسده. كلُّ شيءٍ يبدو بطيئاً جداً أو سريعاً جداً. فالكلام والتفكير والأفعال المنعكسة كلٌّ منها يتَّخذ منحىً خاصاً به. ربما يقول أحدهم إن يوماً في الأراضي المقدسة يمرُّ بطيئاً ثقيلاً كشهر، على حين يؤكِّد آخر أن أيام الحج سرعان ما تنصرم حتى لكأنها ثوانٍ. ما من أحد يستعمل صيغة الزمن الصحيح، أو حتى يتذكَّر في أيِّ أيام الأسبوع هو.

والحجُّ مسيرةٌ مرهقةٌ ومحفوفةٌ بالمخاطر، قمينةٌ بأن تُبرِز دخيلةَ نفس كلِّ حاجٍّ صالحَها ودونَها عاجلاً أم آجلاً، وذلك عندما يتحوَّل الإنهاك إلى انفعال شديد، وعندما يفضي الصفاءُ إلى نفادِ صبرٍ وغضبٍ وذعر. ويدرك الحجاجُ - حتى أكثرهم اعتماداً على نفسه - أن اقترابهم من الله تعالى يقرِّبهم أيضاً من الموت، وأن مَنْ يُرَجَّح أن يجتازوا الحجَّ بسلام هم الذين يمدُّ أحدهم يدَ المساعدة لأخيه. ولا شك أن الجهد الجاهد الذي يبذله الحاجُّ في مواجهة الحَرِّ والزحام والهياج من شأنه أن يستنزف قدرتَه على التحمُّل ويدفعه إلى إقامة صداقاتٍ آنيةٍ مع الغرباء من كل أصقاع الدنيا، واعياً تماماً - في مواقف معينةٍ في الحج - أن كلَّ جزء من الثانية يمرُّ قد يعني موتاً أو حياة.

ونجاح الحج منوطٌ في المقام الأول بالحسِّ بالمسؤولية وروح التعاون بين الحجيج أنفسهم، لا بالموارد الهائلة التي تُفْرِدها حكوماتُهم لمساعدتهم وضبط تحركاتهم في الحج. صحيحٌ أن الأموال المرصودة والتقانة المتطوِّرة والتخطيط السليم والأمن المستتبَّ أمورٌ متحقِّقة على نحوٍ مُعْجِبٍ ومتنامٍ عاماً بعد عام، إلا أن ذلك كلَّه لا يكفي، لأن العامل الحاسم هنا هو الانضباط الذاتي للحجيج ومدى التعاون الذي يبدونه فيما بينهم. فإن تقاربوا وتعاضدوا استطاعوا تدبُّر أمرهم وتغلَّبوا على الصعوبات الكثيرة التي تواجههم كلَّ يوم؛ وإن تباعدوا وتنازعوا فتلك هي الطامَّة الكبرى والخطر المحدق.

مناسك مرنة في أماكن غرّارة

يترسَّم الحجيج في أداء مناسكهم خُطا محمد ﷺ وإبراهيم عليه السلام، مؤسِّسَيْ دعائم الإسلام وعقيدة التوحيد. ويعرف المسلمون، حتى مَنْ لم يسبق لهم شهود الأماكن المقدسة من قبل، مسارَ المشاعر وتسلسلها[1]؛ فهم يتدفَّقون في موكبٍ عظيم ذهاباً من المسجد الحرام بمكة المكرمة إلى

صعيد عرفة الذي يقع على بُعد اثني عشر ميلاً عنها شرقاً، وإياباً إلى مكة من جديد. تتخلَّل الطريقَ نقاطُ توقُّفٍ على امتداد الاتجاهين - في منِى على طريق الخروج، وفي مزدلفة ومنِى على طريق العودة (الشكل 1-1).

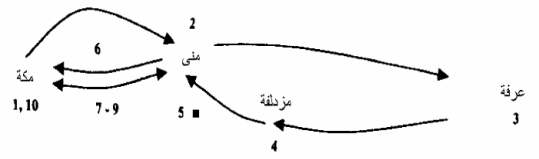

الشكل 1-1 مراحل الحج الرئيسية *

1- **الإحرام ودخول الميقات في أرباض مكة؛ العجيج بالتلبية في الطريق إلى مكة، ثم أداء طواف القدوم سبعةَ أشواط حول الكعبة المشرفة (قبل اليوم الثامن من ذي الحجة).**

2- **الخروج إلى منِى والمبيت في مخيم الحجاج (اليوم الثامن، يوم التروية).**

3- **الاجتماع على صعيد عرفة (اليوم التاسع، يوم عرفة).**

4- **الإفاضة من عرفة بعد الغروب، وقضاء الليلة في مزدلفة، وجمع الحَصَيات لرجم إبليس في منِى (مساء اليوم التاسع وصباح العاشر).**

5- **الوصول إلى منِى ملبِّياً، ورجم النصب الأول الذي يرمز لإبليس (جمرة العقبة) قبل الظهر، ونحر الأضاحي، والتحلُّل من الإحرام (اليوم العاشر).**

6- **العودة إلى مكة، وأداء طواف آخر]طواف الإفاضة[، يليه السعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة (اليوم العاشر أو الحادي عشر).**

7 - 9 **التردُّد بين مكة ومنِى لرمي الجمرات الثلاث والمبيت في منِى ليالي أيام التشريق (من اليوم الحادي عشر إلى اليوم الثالث عشر).**

10- **أداء طواف الوداع ومغادرة مكة دون إبطاء (اليوم الثاني عشر أو بعده).**

وكثيرٌ من أعمال الحج يجسِّد لحظات حاسمةً في حياة إبراهيم عليه السلام وأسرته. فالطواف بالكعبة المشرَّفة تعظيمٌ لله تعالى وإقرارٌ بطاعته

(*) هذه المعلومات وأمثالها في أحكام الحج ومناسكه - على أهميتها وصحتها وفائدتها - لا ترقى إلى أن تكون بديلاً جامعاً عن أمهات المراجع العربية الإسلامية الراسخة في العلم، التي يجدر بالمسلم الرجوع إليها في أخذ مناسك حجِّه على الوجه الأكمل. (المترجم).

عن طريق زيارة "بيته" على الأرض، وهو البناء الذي شاده إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل امتثالاً لأمر الله، الذي نزل به الروحُ الأمين جبريل عليه السلام (الشكل 2-1). يؤدي الطائفون بالبيت صلاةً قصيرةً عند الموضع القابل لباب الكعبة، الذي يُعرَف باسم "مقام إبراهيم". في هذا الموضع، وداخل ما يشبه خزانة عرض، توجد صخرةٌ عتيقةٌ يلاحظُ الناظرُ إليها أثراً يحاكي أثر قدمٍ بشريةٍ يُعتَقد أنها قدم إبراهيم عليه السلام على الصخرة التي كان يعتليها وهو يبني الكعبة.

ويمثِّلُ السعيُ بين الصفا والمروة استعادةً لذكرى السيدة هاجر زوجة إبراهيم وأم إسماعيل، ورمزاً لمحنتها عندما تركها إبراهيمُ وابنَها الرضيع - بأمرٍ من الله - في صحراء غير ذات زرع، فهامت على وجهها تذرع المكان جيئةً وذهاباً بحثاً عن الماء، إلى أن "اكتشفت" بئر زمزم الذي يتضلَّع الحجاجُ حتى اليوم من مائه المبارك وهم في مكة، ويحرص معظمهم على شراء زجاجاتٍ منه يحملها هديةً إلى الأهل والأصدقاء عند عودته.

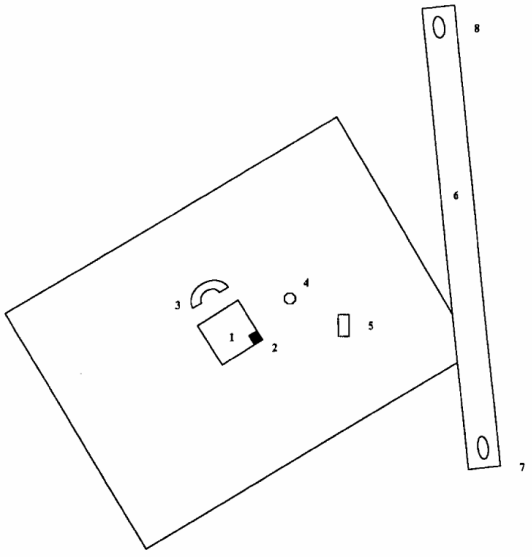

الشكل 2-1 المواقع الرئيسية في المسجد الحرام بمكة المكرمة

1- الكعبة المشرفة	2- الحجَر الأسود
3- الحِجْر - قبر هاجر وإسماعيل	4- مقام إبراهيم
5- بئر زمزم	6- المسعى
7- الصفا	8- المروة

لكن ذروة الحج ليست في مكة نفسها، بل في سوادها على صعيد عرفات وفي منِى. ففي اليوم التاسع من ذي الحجة (آخر شهور السنة القمرية) يجتمع الحجيج الذين قد يربو عددهم على المليونين على ذلك الصعيد من وقت الظهيرة إلى غروب الشمس في تأمُّل وصلاةٍ ودعاء. واجتماع المسلمين في عرفة إنما هو إحياءٌ لذكرى الجَمْع الذي خَطَبَه النبي ﷺ في "حجّة الوداع" خطبته الجامعة، وتلا عليهم آخر ما نزل من آيات القرآن الكريم قبل بضعة شهورٍ من وفاته. وتحتشد جموع الحجيج حول جبل الرحمة حيث وقف النبيُّ ﷺ خطيباً، وحيث يعتقد كثيرٌ من المسلمين بأن الدعاء هناك أقرب إجابةً من أيِّ مكانٍ آخر على وجه الأرض.

وعند الغروب تتهيَّأ عشراتُ الألوف من العربات وسيارات النقل الصغيرة والكبيرة للتحرك الشاقِّ إياباً إلى مكة، متراصَّةً طوال الليل في المزدلفة حيث يلتقط كلُّ حاجٍّ سبعين حصاةً تحت سماء الليل المضاءة بالنجوم. تمثِّل تلك الحصَيَاتُ "ذخيرةً" لليوم التالي في منِى عندما يشرع الحجاجُ برمي الجمرات التي ترمز لإبليس. وكان الله قد أمر إبراهيمَ بذبح ولده إسماعيل، فتمثَّل الشيطانُ ثلاث مرات للوالد يغريه بعصيان أمر ربه. وفي كلِّ مرة كان إبراهيم عليه السلام يطرده برجمه بالحجارة. من هنا كان فعلُ الحُجَّاج من رجمٍ لما يمثِّل الشيطانَ إحياءً لسَنَن إبراهيم، وتذكرةً لهم لمتابعة جهادهم الدائب لكل شرورٍ وغواية.

وعندما يَنحر الحُجّاجُ الهديَ في منِى، فهم بذلك يحتفلون بحكم الله في فداء إسماعيل بذِبْحٍ عظيمٍ أَمَر اللهُ إبراهيمَ أن يقدِّمه بديلاً عن الولد. وعلى

هذا النهج يقدِّم الحجيج أضاحيهم في اليوم العاشر من ذي الحجة، وهو ذاتُ اليوم الذي يحتفل فيه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها بعيدهم الأكبر، عيد الأضحى الذي يُسَنُّ أن تُنْحَرَ فيه الأضاحي تقرُّباً إلى الله عزَّ وجلَّ، ويُتَصَدَّق بجزءٍ من لحمها على الفقراء والمعوزين.

على أن أشد أيام الحج وطأةً وخطراً هي الأيامُ الثلاثةُ الأخيرة منه: من اليوم الحادي عشر وحتى غاية الثالث عشر من ذي الحجة؛ وفيها ينبري الحجيج في حركة دائبةٍ بين مِنى ومكة، ماضين لإتمام مناسكهم في كلا الموقعين استعداداً للعودة إلى أوطانهم أو للقيام برحلةٍ ثانويةٍ إلى المدينة المنوَّرة. هنا يبلغ الزحام والتدافع منتهاهما، وهنا أيضاً تقع أغلب حوادثِ الحجِّ المؤسفة، إذ تشير الإحصائيات إلى أنه في غضون العقود الثلاثة الماضية قضى نحو 2700 حاجّ نحبهم في مِنى وحدها، معظمهم بسبب الحرائقِ التي شبَّت في موقعِ المخيَّم وتدافُعِ الحشود على جسور المشاة وفي النفق المؤدّي إلى مواضع الرجم حول الجمرات[2] (الجدول 1-1).

الجدول 1-1 كوارث تتصل بالحج وقعت في السنوات القريبة الفائتة

2004	وفاة 251 حاجاً في مِنى نتيجة التدافع الجامح لأمواج الحجيج عند الجمرات.
2001	الحشود المتدافعة عند الجمرات تتسبَّب في مقتل 35 شخصاً في أثناء رجم إبليس.
1998	شدة الزحام عند الجمرات تفضي إلى هلاك 118 حاجاً دوساً بالأقدام.
1997	حريق يكتسح مخيَّم الحجاج في مِنى ويسفر عن تدمير 70.000 خيمة و 343 ضحيّة و 1500 جريح.
1994	التدافع العارم يقتل 270 شخصاً وطئاً تحت الأقدام قرب الجمرات.
1990	وفاة 1426 حاجاً في فورة تزاحُم الأمواج البشرية في نفق المشاة عبر الجبال ما بين مكة ومِنى. انقطاع تكييف الهواء وغياب الإضاءة نتيجة عطل في منظومة توليد القوة الكهربائية، مما بثَّ الذعر في نفوس الآلاف من شعورهم بأنهم قد حُبسوا داخله.

1989 إرهابيون يفجّرون قنبلتين في مكة، والحصيلة قتيل واحد و16 جريحاً. اعتُقِل ستة عشر كويتياً وأعدموا.

1987 رجال الشرطة يشتبكون مع متظاهرين موالين لإيران داخل الحرم المكّي، ومقتل 402 شخصاً.

1975 حريق يقتل ما لا يقلّ عن 200 حاجّ في مخيّم مِنى.

وقد أنفقت السلطاتُ السعوديةُ مبالغ لا تقلّ عن 25 مليار دولار لتوفير أماكن تتَّسع لأعدادٍ أكبر من الحجيج وضمان سلامتهم، ولعلَّ التحسينات التي أُجريت على البنية التحتية للحج والخدمات المقدَّمة في سبيله لم تزِد المشكلة إلا تعقيداً، خلافاً لما هو منتظر، وذلك باجتذاب حشودٍ أكبر من ذي قبل إلى مساحاتٍ صغيرةٍ باتت اليوم أشدَّ اكتظاظاً وأثقل عبئاً لأنها حُمِّلت فوق ما تطيق[3] (الجدول 2-1). وبقطع النظر عما يتميَّز به السعوديون من سرعةٍ في الهدم وإعادة البناء، فهم عاجزون عن مجاراة المدِّ الطامي من الحجيج الظامئين إلى الحضور مهما كانت الظروف.

من ناحيةٍ أخرى فقد خفَّفَ القائمون على شؤون الحج الضغطَ شيئاً ما، باعتماد نظام تحصيصٍ يجمِّد المشاركةَ بالحج عن كل فرد عند المستويات التي كانت عليها سنة 1990. فمعظم الدول في الوقت الحاضر لا تستطيع إرسال أكثر من ألف حاجٍّ من كل مليون من عدد السكان. وبذلك يتحدَّد المجموعُ الكلي لعدد الحجاج الوافدين من الخارج بنحو 3.1 مليون شخص سنوياً[4]، وهكذا استحالت الشبكةُ الدولية لوكالات الحج - التي وُجدت أصلاً لتشجيع الحج - إلى مجرَّد "قيِّمٍ" تقتصر مهمَّتُه على تقليص التدفق من مصدره الأساسي.

كذلك قيَّدت السلطات السعودية عددَ الحجاج الداخليين - من المواطنين السعوديين والأجانب المقيمين في المملكة - الذين كان يناهز عددهم فيما

مضى عددَ الحجاج الوافدين من الخارج. ففي عام 1998 طلبت الحكومةُ السعوديةُ من مواطنيها التقدُّم بطلباتهم إلى هيئات الحج المحلية المفوَّضة، لمنح الموافقات فقط لمن لم يحجَّ منذ خمس سنواتٍ على الأقل، فانخفض عدد الحجاج من داخل المملكة من 50 بالمئة من العدد الكلِّي للحجاج إلى أدنى من 30 بالمئة – ومعظمهم من غير السعوديين[5].

وقد سعت السلطاتُ السعودية إلى التخفيف من وطأة الحصص عن طريق تشجيع الناس على الاقتصار على عددٍ محدودٍ من الحجج، والاجتزاء بمزيدٍ من العُمَر (التي يمكن أداؤها في أيِّ وقتٍ من السنة). ففي عام 2001 أبدى السعوديون انفتاحاً في نظام العمرة يتَّسم بالسماح للأجانب بالتنقُّل بحريَّةٍ داخل المملكة. والسعوديون، بمنحهم المعتمرين تأشيراتٍ مكافئةً للتأشيرات السياحية، يأملون في اقتناص عصفورين بحجر واحد: استنضاب السخط على القيود الجديدة المفروضة على الحج، وإنشاء صناعةٍ سياحيةٍ تستجلب عملةً أجنبيةً دون الحاجة إلى قبول غير المسلمين، علماً بأن السيّاح السعوديين ينفقون قرابة ثمانية مليارات دولار خارج المملكة سنوياً، أي ما يعادل ثلاثة أضعاف ما ينفقه جملة الحجيج في المملكة. إلا أن اعتماد نظام عمرةٍ أكثر حريةً قد يعوِّض هذه النفقات ويخفِّف مظاهر الضغط في موسم الحج.

الجدول 2-1 موارد وخدمات مكرَّسة للحج

توسيع المسجد الحرام	**زيادة مساحة المسجد الحرام خمسة أضعاف بعد عام 1955، ومضاعفة أخرى في المساحة بعد عام 1988، بحيث أصبح بتَّسع لأكثر من مليوني مصلٍّ في كل مرة.**
توسيع المسجد النبوي	**أربع توسعات منذ عام 1951، ليتَّسع لـ 700.000 مصلٍّ.**
النقل	**تخصيص محطة مستقلّة في مطار الملك عبد العزيز بجدّة لاستقبال 50.000 حاج يومياً (أكثر من 450 رحلة من إندونيسيا وحدها، و 376 رحلة إضافية من باكستان)؛ منشآت في ميناء جدّة البحري تتَّسع لـ 70 باخرة تنقل 80.000 حاجٍّ في غضون أقلٍّ من ثلاثة أسابيع.**

الأمن والصحة والخدمات	15.000 شرطي، و 5000 طبيب وممرِّضة، و 35.000 شرطي مرور، وعمال التنظيف والمخابز، وعمال جمع القمامة.
الغذاء	2.95 مليون رغيف خبز؛ 8.7 مليون وجبة جاهزة معروضة للبيع في 1500 نقطة بيع في مكة وعرفة ومِنى.
الماء	5.50 مليون عبوة بلاستيكية سعة ليتر واحد، و 113 مليون زجاجة مياه معدنية، و 141 مليون ليتر من ماء زمزم.
المنشورات	6 ملايين كتاب، و 600.000 كاسيت مسموع، و 300.000 مصحف، و 117.000 شريط فيديو بخمس لغات.
المراكز الصحية	85 مركزاً صحياً في مكة، منها خمسة في المسجد الحرام؛ و 133 مركزاً في المدينة، منها سبعة في المسجد النبوي.
الخيام الصامدة للنار	40.000 خيمة مصنوعة من الألياف الزجاجية، و 42.000 مضخة ماء، و 27.000 مرحاض في مِنى.
النَّعَم	1.1 مليون رأس من الخراف، و 172.000 رأس من الماعز، و 60.000 رأس من البقر، و 60.000 رأس من الإبل؛ وتوزيع لحوم أكثر من 600.000 رأس من النَّعم على 27 دولة.
كسوة الكعبة المشرفة	450 كيلو غراماً (أي 992 رطلاً إنكليزياً) من مطرزات الحرير والذهب المنسوجة بأيدي 200 شخص بكلفة 53.4 مليون دولار.

ومن الممكن أن يكون الزحام وعدد الضحايا أكبر بكثير لولا مرونة المناسك في حدِّ ذاتها. صحيحٌ أن على الحجاج أداء مناسك واحدة في أمكنةٍ واحدة، غير أنهم يتمتعون بفسحةٍ من الحريّة والتيسير في توقيت تحرُّكاتهم وتسلسُلها، إذ إن نيَّة الحاجّ هي دوماً أهمُّ من دقّة أداء النُّسك؛ فإذا قضت ضرورات الصحة أو السلامة أن تخلَّ الحاجَّةُ ببرنامج الحج شيئاً ما، فثمة وسائل عديدةٌ لاستدراك الخلل: كنحر هديٍ إضافيّ، أو صيام أيامٍ في غضون السنة المقبلة، أو زيادة مقدار الزكاة السنوية.

بل إن إدارة الحج تشجِّع الحجيج على التزام الأساسي من الشعائر والاستغناء بها عن المندوبات المألوفة بحكم العادة، أو تلك التي قد تنطوي على خطرٍ على حياتهم. فلا تفتأ الإدارةُ على حَضِّهم مثلاً على الاقتصار في الطواف على الإيماء باليد للحجر الأسود من بُعدٍ دون تكلُّف استلامه في لجَّة الزحام. ثم إن معظم الحجاج اليوم يقدِّمون هديهم بتوكيل غيرهم نيابةً عن أنفسهم، مطمئنين إلى أن اللحوم الفائضة عادت لا تُحرَق أو تُدفَن في رمال الصحراء كما كان عليه الأمر فيما مضى، بل تُثلَّج وتُنقَل جوّاً لإطعام فقراء المسلمين في نحو ثلاثين دولةً حول العالم[6].

وتوخِّياً لتخفيف الزحام لعلَّ من المفيد طرح اقتراحين، مع ما يترتَّب عليهما من تنكُّبٍ عمّا درجَ عليه الناسُ بالعرف، أوَّلهما إتاحةُ وقتٍ أطول لرمي الجمار في منى بصورة تمكِّن الحجاج من رجم إبليس طوال ساعات النهار بدلاً من التكدُّس في أشدِّ الساعات قيظاً لهذه الغاية. وثانيهما ضرورة مغادرة الحجاج مكةَ المكرمة حالما ينتهي الحج دون المكث فيها بصفة طلاب علم أو مقيمين دائمين، كما كان دأب الملايين لقرون خلت[7].

إن الإدارةَ الدوليةَ للحج والمرونةَ في أداء الشعائر تسهمان فعلاً في إنقاذ حياة أرواحٍ كثيرةٍ جداً كلَّ عام. إلا أن أياً من هذين العاملَيْن لا يضمن حجّاً مأموناً وناجحاً تماماً؛ بل إن المدار في المحصلة على الحُجّاج أنفسِهم في تنظيم حجٍّ تكون فيه الحوادثُ المؤسفة هي الاستثناء لا القاعدة الغالبة. ونجاح الحج منوطٌ بإرادة مليوني حاجٍّ من شتى الأجناس والأمصار على إنجاحه.

مجموعاتٌ صغيرة وأعمالٌ كبيرة: إقامة صداقاتٍ في الحج

مع أن جوهر الحج هو توكيد عُرا الوحدة والمساواة، يبطئ الحجاجُ عادةً في إدراك قيمة عناية كلِّ فردٍ بأخيه مكان الأثرة والأنانية. ولم تكن المجموعةُ التي كنتُ أحدَ أفرادها أفضل حالاً. فقد جاء أصحابي، الذين يناهز عددُهم

الخمسين، من كلّ صوبٍ من الولايات المتحدة، إلا أن معظمهم كان من المهاجرين الهنود والفلسطينيين الذين سرعان ما عزموا على ألا يتحابُّوا!

وقد كانت كراهيتُهم المتبادلة تعبيراً ناطقاً عن مشاعر التحاسد القومية والعِرقية التي يُفتَرض أن يترفّع الحجُّ عنها. ومع ذلك، وبالعودة بالذاكرة إلى الوراء، أرى أن هؤلاء قد أسدوا إلينا معروفاً عظيماً بضربهم هذا المثل السيِّئ في الأيام الأولى من رحلة حجِّنا، إذ جعلوا سائرنا أكثر عزماً على إقامة صداقاتٍ وطيدةٍ لمَّت الشمل وحملتنا على التعاون طوال الأسابيع الشاقة التالية.

ترويض روح العصبية القبلية

وقعَ أكثرُ الخلافات إحراجاً في جُدَّة بُعَيْد وصولنا المملكة العربية السعودية، بينما كنَّا نتأهب قبل أداء مناسك الحج لزيارة المدينة المنورة، حيث أسَّس الرسول ﷺ المجتمعَ الإسلامي المثالي. وما إن ركبنا الحافلة حتى استحال مرحنا ونشاطنا إلى صمتٍ بغيض عندما وجدنا أن عدد المقاعد لا يتَّسع لنا جميعاً، وكان معظمنا يعاني من الإعياء الذي يسبِّبه عادةً الشعورُ بالفارق الزمني، لا سيما بعد يومين من الطيران تخلَّلتهما فتراتٌ طويلةٌ من التوقف في نيويورك وفرانكفورت وعمّان. وكان لا بدَّ من أن يبقى أحدنا واقفاً.

وحدث أنَّ آخرَ من صَعِدَ المركبة – وهم من الهنود الكهول وأغلبهم من النساء – كان أقلَّ الناس صبراً على تحمُّل المزيد من الإزعاج. لم يتحرك أحد ولم يتكلم أحد. ثم اتجهت الأنظار إلى أربعةٍ من الشبان الفلسطينيين في العشرينيات من أعمارهم، كانوا جالسين في وسط المركبة. صاح أحدهم، يدفعه الغضب أكثر مما يدفعه الخجل: "أَوْلى بالرجال الهنود الوقوف لإجلاس نسائهم والسهر على راحتهنّ."

عندها انبرى له الدكتور حسن – وهو جرَّاح في العقد السادس من عمره، والرجل الوحيد بين أولئك الواقفين – قائلاً:"عمَّ تتحدَّث يا أخي؟ لا

فضل هاهنا لأحد على أحد؛ كلنا مسلمون. وما هي إلا سويعاتٌ حتى نكون بجوار قبر النبي، وأنتم منشغلون بسفاسف الأمور. أيُّ حجٍّ هذا الذي تؤدُّونه؟!"

لم تكن تلك إلا غيضاً من فيض مواعظ عديدةٍ كان الدكتور حسن يرتجلها في آداب السلوك الاجتماعي والحرص على دقة أداء المناسك؛ فهو دائم القلق على حجِّنا من أن "يفسد" نتيجةَ التراخي في أداء منسكٍ من مناسكه، وعلى حالة الصفاء الروحيّ من أن يعكرها أيُّ تصرُّفٍ محظورٍ في الحج. ومن المعلوم أن من أولى مفسدات الحج الدخول في جدالٍ أو مهاتراتٍ مع أيِّ أحد حتى وإن كان هو البادئ بها.

وما إن انتهت سَوْرة الدكتور حتى استقامت الأمور تماماً، فوقف الجالسون وقدَّموا مقاعدهم بأريحيّةٍ للقادمين المتأخرين، ووجد كلٌّ منا مكاناً له يحشر نفسه فيه، لا يهمه مَنْ الجالس إلى جانبه: صغيراً كان أم كبيراً، ذكراً أم أنثى، هندياً أم فلسطينياً. حتى إن الشبان الذين كانوا سبباً في استثارة الدكتور بادي الرأي التزموا مقاعدهم ولاذوا بالصمت والهدوء. ويبدو أنهم تمثَّلوا الرسالة، فكانوا بعد ذلك على أعلى مستوىً من حُسن السلوك.

الدكتور يتعلَّم الاسترخاء

مع تطوُّر العلاقات الأخوية بين الصَّحب الذين ينتمون إلى ثقافاتٍ مختلفة، بدت خلافاتُهم الأولى وقد تلاشت من الذاكرة. وأفاد الجميعُ من الصحبة، إلا أن الدكتور حسن كان أكثر المستفيدين؛ فقد راح يحثُّ الآخرين على نبذ روح "الضغينة القبلية" من نفوسهم، وتمنَّوا هم عليه بالمقابل أن يخفِّف من غلوائه في الحرص على تطبيق المناسك على تمامها.

وقد حدثت نقطةُ التحوُّل عند الدكتور في مزدلفة، وسط أكبر زحامٍ مروريٍّ في العالم. فمع غروب يوم عرفة يتعيَّن على الحجيج جميعاً - الذين يناهز عددهم المليونين - مغادرة عرفة في وقتٍ واحد، يندفع فيه أكثر من 100.000 من الحافلات والشاحنات والسيارات الصغيرة والعربات المقفلة في

ممرِّين جبليَّين ضيِّقين، مما يتسبَّب في حدوث اختناقاتٍ مروريةٍ هائلة. وبحلول الظلام تتابع المركباتُ الزحفَ ببطءٍ شديدٍ جداً لا يتجاوز الميلَ الواحد بالساعة في أحسن الحالات، لتصل إلى مزدلفة عند منتصف الليل أو بعده. يتوقف الحجيج هناك حتى ظهور خيوط الفجر الأولى قبل الانتقال إلى مِنى.

وليس ثمة ما يفعلهُ الحجَّاجُ في مزدلفة سوى القليل. وهذا ما حمل العديد في الماضي على وصف الموقف هناك بكثيرٍ من السعادة، حيث يقضي الحاجُّ وقته بالصلاة والدعاء، وكذلك بجمع سبعين حصيّةً لاستعمالها فيما بعدُ في رجم إبليس. وغالباً ما يخيِّم الحجاجُ تحت سماء الصحراء يتأمَّلون نجومها تتراقص على صفحة القبة السماوية النيِّرة من فوقهم. وقد وفَّرت مزدلفة في الماضي ساعاتٍ طيِّبةً يخلد فيها الحاجُّ إلى السكينة والعزلة ليستعيد شيئاً من طاقته استعداداً للأيام الأخيرة من المناسك، التي تقتضي التردُّد جيئةً وذهوباً بين مِنى ومكة.

أما اليوم فقد تلاشى هذا المتنفَّس، فغدا ذلك السهلُ باحةً هائلةً لوقوف السيارات، تمثِّل أميالاً من الإسفلت الفاحم تحت أبراج من الأنوار الباهرة، حيث تصطفُّ آلافُ الحافلات المكيَّفة التي تُطلق محرِّكاتُها سُحُباً غليظةً من أحادي أكسيد الكربون. ولربما وَجَدَ جزءٌ صغيرٌ من طلائع القادمين مكاناً لنصب خيامٍ لهم في الصحراء، والصلاة في مسجدٍ صغيرٍ هناك. ينتظر الحجاجُ حتى ظهور خيوط الفجر الأولى مؤذنةً بتجُّدد الرحلة صوب مِنى. ينضاف إلى ذلك أن مزدلفة في نظر الكثيرين أرضٌ كئيبة مَنْ يبتعد فيها عن حافلته بضعةَ مئات من الأقدام قد يضلُّ طريقَ العودة فلا يهتدي إليها أبداً.

وتمثِّل "مزدلفة الجديدة" خيبةَ أملٍ للكثيرين، في حين مثَّلت عبئاً حقيقياً على الدكتور حسن. فقد اقترح المشرفون على الحملة أنه بالنظر إلى صعوبة الظروف، فلا بأس أن نترخَّص ونغادرها قبل الفجر بسويعات، وبذلك نصل إلى مِنى في وقتٍ مبكرٍ يمكِّننا من أداء الشعيرة الأولى للرجم قبل اشتداد

وطأة الحرِّ وتزايد أعداد الحجيج بدرجة خطرة. إلا أن الدكتور لا يلقي إلى ذلك بالاً ويعدُّ مثل هذا التصرُّف تحايلاً صريحاً، بل يصرُّ على المبيت في مزدلفة فيقول مخاطباً صحبه:"مَنْ كان منكم يريد إفساد حجِّه فلا أملك له صرفاً. دعوني إذن أترجَّل من الحافلة هنا لأتدبَّر أموري بنفسي."

كنَّا جميعاً ندرك أن الدكتور يعرِّض نفسه لخطرٍ شديد إذا هو انفصل عن المجموعة وحاول الالتحاق بها في منى. وقضينا نصف ساعة في إقناعه بالبقاء بشتى الوسائل. فبيَّنّا له أن المبيت في مزدلفة هو مجرد عُرفٍ درجَ الناسُ على مراعاته، وليس مطلباً لازباً لصحة الحج، وأنه بات من الطبيعي اليوم اختصار زمن المكث هناك بسبب شدة الزحام. إلا أن شيئاً من هذا لم يثنِ الدكتور حسن عن مقصده. أما نحن فكنا نلتمس الرخصة حيثما وُجدت. ولما كان الكسب الماديّ هو الغاية الأولى لوكلاء السفر، فهم لا يتورَّعون عن الأخذ بالرُّخَص التي لا يجد بعضُ العلماء حرجاً في الإفتاء بها في مقابل أجرٍ مادّي يتقاضونه.

وسرعان ما اتَّسعت دائرة الجدال بعدما أضاف الإخوةُ أسباباً أخرى لثني الدكتور عن عزمه، فذكَّره بعضُهم بأن خلوصَ النيَّة في الحج أهمُّ بكثيرٍ من أيِّ شعيرة، وأن الله وحده هو الذي يعلم الحجَّ المقبول من الحج الناقص الذي لا سبيل إلى لأْمه؛ وحُكم الله في ذلك يعتمد على ما في قلب الحاجِّ أكثر من اعتماده على درجة الدقة في أداء النُّسك، وما من أحد يمكنه أن يتنبَّأ بنتيجة ذلك على وجه اليقين. وقالوا للدكتور أيضاً إن عليه أن يستفتي قلبه في جودة مقاصده، فإن وَجَدَ في نفسه الثقةَ الروحية التامة، فلن تقف مظاهرُ حرفيةِ التطبيق عائقاً أمامه حتماً.

وأشار آخرون إلى أنه حتى لو اعتبرنا أن مغادرة مزدلفة في وقتٍ مبكر ينطوي على إخلالٍ في أداء هذه الشعيرة، فإن ذلك من صغائر الذنوب التي يمكن ترميمها بأعمال أخرى. قالت سيِّدة تجلس في مقدِّمة الحافلة:"الكمال

لله وحده"، وقالت أخرى تجلس في الخلف:" وهو يعلم سبحانه أن زوّار بيته موصوفون بالنقص"، وقال ثالث يقف بجوار الدكتور متابعاً مقالة من قبله:" ولا سيما إذا كان توخِّي الكمال يعني التردّي في التهلكة".

وكان ثمة جدالٌ آخر أثَّر في الدكتور حسن، مع أنه كان صادراً عن شعورٍ باليأس لا عن منطقٍ سليمٍ ولا عن أيِّ مرجعٍ ديني. فأبدى العديدُ منّا استعداده لتحمُّل مسؤولية القرار بالتحرُّك، وإحلال الدكتور من وِزْر المخالفة - إذا كان في الأمر مخالفة - أمام الله عزَّ وجلّ.

وأخيراً تخلَّى الدكتور عن تصلُّبه وانقاد ممتثلاً للجماعة، وهزَّ رأسه للسائق إيذاناً بالانطلاق بعد أن تراجع عن الباب الأمامي للحافلة وأخذ مقعده. لقد كانت تلك المناقشة من أكثر المناقشات التباساً وانفعالاً، وتميَّزت بإعلانٍ تلقائيٍّ عن مسؤوليةٍ مشتركة يحملها أولئك الأفراد أنفسهم الذين كانوا في المدينة المنوَّرة هدفاً لتوبيخِ الدكتور لاستسلامهم للعصبية القبلية. أما الآن فقد وحَّدَ الجميعُ قدراتهم في الإقناع لاستمالة هذا الإنسان العنيد المعتزِّ بنفسه، الذي أوقع نفسه في الحرج ثم أراد خروجاً يحفظ ماء وجهه؛ فبعد أن كان مصرّاً على الانفصال عن المجموعة إنقاذاً لحجِّه، بدا الآن مرتاحاً للبقاء معنا والاستئثار بمزيدٍ من احترامنا.

الحاجُّ المركَّب

لم يكن ثمة أفضل من الوقت الذي اختاره أصحابي لبناء جسور التقارب فيما بينهم، لأن الأيام الأخيرة في منى ومكة كانت أصعب أيام رحلتنا على الإطلاق. وكنتُ في الأسبوع الذي سبق قد صادقتُ عدداً من الرجال المسافرين منفردين. ولم يمضِ وقتٌ طويل إلا وقد تطوَّرت أسرتنا - التي تألَّفت على عجَل - لتكون من أكثر وحدات المجموعة تماسكاً. وقد قضيتُ معظم وقتي بصحبة محمد (قائد الحملة المصرية والطالب الجامعي في شيكاغو) وسلطان (الأمريكي الإفريقي الفارع الطول، العامل في مصلحة

البريد من أوكلاند). وفي معظم الأيام كان ينضمُّ إلينا كلٌّ من أشرف (وهو مهندس مصري من ميلووكي) وحسين (باكستاني يدير مكتباً سياحياً في نيو أورلينز)، إضافة إلى رجلين متزوّجَيْن كانا يلتحقان بنا كلما كانت زوجتاهما في مهجع النساء، وكنّا نطلق عليهما - تحبُّباً - اسم "الأخَوان أوهايو" إلا أنهما في الواقع عديلان من أرياف الغرب الأوسط الأمريكي متزوجان من أختين تنحدران من أسرةٍ سوريةٍ مهاجرة.

وقد تمَّ التعارف بيني وبين كلٍّ من محمد وسلطان في المدينة المنوَّرة، حيث سعى محمد لأكون وسلطان نزيلَيْ غرفة واحدة، وليتردَّد علينا كلما سنحت له الفرصةُ. وقد أنفق سلطان يوماً ونصف اليوم مرشداً إلى تاريخ الإسلام بين السود في أمريكا، فقدَّم عرضاً بارعاً عن الأحزاب المتنافسة هناك، متناولاً أصولهم الاجتماعية وخلافاتهم وتكيُّفَهم مع الاتجاه الإسلامي وتأثيرهم في حركة الحقوق المدنية ككل.

ثم طلب سلطان من محمد ترجمةَ آياتٍ من القرآن الكريم لكي يدرك المقصود من الإشارة إلى "الكافرين"، وهل يشملُ ذلك النصارى واليهود؟ فرأى محمد أن غير المسلمين جميعاً، ومنهم "أهل الكتاب"، مشمولون بهذه الصفة. لكنِّي نبَّهتُ إلى أن التفاسير الموثوق بها تناقض قوله، فسارعَ إلى الإقرار بصحة ملاحظتي قائلاً إن اختلاف الآراء مفيد لأنه يحمل الناس على الرجوع إلى القرآن التماساً للدليل.

وتناولَ مرةً من جيبه مصحفاً صغيراً يحمله حيثما ذهب. وأعلَمَنا أنه وزوجته قد تعاهدا على الاحتكام إلى القرآن الكريم والالتزام بتعاليمه كلما اختلفا في أمر. قلتُ له:"إذا كنتما تقرأان القرآن الكريم على هذا النحو، فلا بدَّ أن زوجتك هي التي تفوز بكلِّ ما يدور بينكما من مناقشات." فوافقني على ذلك مبتسماً من خلال لحيته السوداء الجعدة قائلاً:"وأنا أفوز أيضاً بين الفينة والأخرى".

وتولَّدت فيما بيننا بمرور الزمن روحُ الحماية المتبادلة التي بدأت بأمورٍ صغيرة من قبيل مراقبة أحدنا للآخر وهو يخوض الزحام، والتنبُّه لأمارات الإنهاك والتجفاف. وبدا كلٌّ منّا وكأنه يقدِّم جزءاً من نفسه إلى حاجٍّ رابعٍ وهميّ ابتدعناه من عند أنفسنا ليرعى شؤوننا جميعاً، فكان راعينا المركَّب متمثّلاً في كلِّ شيء كنّا عليه وزيادة، مستغرقاً حجمنا وقدرة احتمالنا، وأحاسيسنا وغرائزنا، ولُغاتنا وبراعاتنا الاجتماعية، وشجاعتنا وتعقُّلنا.

أثبت مبدأ الرعاية المتبادلة جدواه إذ أنقَذَنا من أذىً جسديٍّ محقَّق في مواقف عدة كان أبرزَها واقِعتان اثنتان، أولاهما في المدينة المنوَّرة في أثناء زيارةٍ صباحيةٍ للمسجد النبوي. ومعلومٌ أن النقطة المركزية في المسجد مساحةٌ محدودةٌ منه تقع بين منبر الرسول ﷺ وقبره الشريف، وبين المنبر والقبر معبرٌ يُعرف بالروضة النبوية، كثيراً ما كان النبي ﷺ يصلّي فيها. وبقطع النظر عن عدد التوَسِعات التي شملت الروضةَ النبوية حتى اليوم، ما برحت أفئدةُ المسلمين تهفو إلى الصلاة في هذا الركن، الصغيرةِ مساحتُه والعظيمِ قدره، أو قريباً منه ما أمكن.

ويَسمح حراسُ أمن المسجد للحجيج بالصلاة في الروضة الشريفة صلاةً قصيرة، ثم المرور سريعاً بقبر رسول الله للسلام عليه، غير أنهم لا يسمحون بالدعاء أمام القبر الشريف كيلا يبدو الحاجُّ وكأنَّه يتوجَّه بدعائه لغير الله عزَّ وجلّ، لا سيما وأنه يكون في موقفه ذاك مستدبراً الكعبة المشرَّفة. ولا ريب أن السيل المندفع من الزائرين المفعمين بالعواطف الجياشة، وما يقع من تصادم مع حراس الأمن أحياناً، يجعل من هذا الموقف نقطة توتُّر شديدٍ توشك على الانفجار تحت أيِّ ظرفٍ من الظروف. ومنذ الثورة الإيرانية صار حرَّاسُ الأمن أكثر ميلاً إلى استعمال القوة في وجه الشاردين غير المنتظمين من أولئك الحجيج، خشية أن يكونوا من الشيعة المعترضين على الحظر المفروض على زيارة مواقع الضرائح الأخرى في المدينة المنوَّرة.

وعند زيارتنا لقبر رسول الله عليه الصلاة والسلام عَجِبْتُ وسلطان من شدة انفعالات محمد. وكنّا قد قمنا من قبلُ بعدّة زيارات للمسجد النبوي في أوقات مختلفة من النهار والليل، وحَسِبْنا أن هذه الزيارة ستكون كسابقاتها - متَّسمةً بالازدحام لكنها سائغةٌ وبهيجة. وما إن حشرنا أنفسنا في الرتل المارّ من أمام القبر الشريف حتى وجدنا صاحبنا محمداً يجهش بالبكاء على نحوٍ لا يستطيع معه أن يملك نفسه.

وفيما هو على تلك الحال، وقد غَلَبَتْه فيوضُ المشاعر في حضرةِ النبيّ، وقف ساكناً مغمض العينين يتمتم بالدعاء، رافعاً يديه بمحاذاة صدغيه. وسرعان ما وقف إلى جانبه آخرون يجأرون، فتباطأ بذلك تدفُّق الزّوار شيئاً فشيئاً إلى أن توقَّف تماماً، فسبَّبَ ذلك ضغطاً لا يُحْتمل على الحشود من خلفنا.

وبينما كان سلطان يشقُّ طريقه نحو المخرج جذبتُ ذراعه منبِّهاً. وما إن رأى محمداً حتى حدَّثَتْني عيناه بأنه أدرك ما بدأتُ أنا بإدراكه للتّو - فحرّاس الأمن قد تأهّبوا للانقضاض، وصار الحجاجُ في حالة ذعر. وفي لحظةٍ أمسكنا بمحمد وجبذناه حتى ثاب إلى وعيه ثم دفعناه نحو الباب. وفي الوقت الذي شرع فيه الحرّاس بالتدخُّل كانت الصفوف قد انتظمت من جديد.

وحدثت الواقعةُ الأخرى بعد أسبوع من ذلك، في منِى، وكانت نجاتُنا منها بأعجوبة. كانت الحشود كثيفة جداً حول الجمرات الثلاث حيث يرجم الحجاجُ "إبليس" بحَصَياتهم. وكانت السلاليمُ المنحدرة المؤدِّية إلى ميدان الرجم ملأى بنعالٍ متروكة يصعب اجتنابُ التعثّر بها، فلا يجد الحجاجُ أنفسهم، إذا أرادوا نزول هذه السلاليم سالمين، إلا وقد فقدوا نِعالهم أو كادوا.

استغرق وصولنا إلى منطقة رمي أقرب الجمرات زهاء ثلاثين دقيقة، ذلك لأن آلاف الحجاج كانوا يتدافعون في اتجاهاتٍ متعاكسةٍ في وقتٍ واحد. ولاحظنا أن نحواً من نصف العدد الموجود يحاول دَفْعَنا جانباً، عازماً على الخروج من المسلك نفسه الذي دخل منه بدلاً من متابعة التقدُّم باتجاه

الجمرات الأخرى في تدفّقٍ مطَّرد. وكانت الحصَياتُ تتناثر في كل مكان، معظمها قاصر عن بلوغ هدفه، ويصيب بأذاه الحجَّاج الذين لاذوا بالجدار المحيط بالجمرة تَوَقِّياً من الأذى، وهَمُّهم الخروج بأي سبيل.

جَهِدْتُ وسلطان إلى أن وصلنا موضعاً ملائماً لرمي حصياتنا من فوق بحرٍ من الرؤوس المهتزَّة؛ ثم تنحَّينا قليلاً لإفساح المجال لحسين وأشرف بالاجتمار. حصياتٌ قليلة فقط هي التي أصابت مرماها، في حين أخطأه معظُمها متجاوزاً الحدّ. وفي محاولةٍ منّا لتجنُّبِ إصابة الحجاج الذين أمامنا، بالغنا في الرمي حتى إننا أصبنا الرُّماة على الطرف الآخر من الجمرة.

وعندما حان الوقت لمغادرة المكان، كنا - كما غيرنا - لا ندري أي طريقٍ نسلك. وكان سلطان أطولنا قامةً؛ فهو الوحيد الذي يستطيع أن يستكشف الكتلة البشريةَ المتحركة والأيدي الملوِّحة. ووقع على فرجةٍ إلى اليمين فطلب منا أن نسير أمامه على أن نمتثل تعليماته وهو يرفع صوته بها محدِّداً اتجاهات السير. وتمكَّن بالفعل من قيادتنا تدريجياً إلى خارج منطقة الخطر. وكنتُ شخصياً قريباً منه لا يفصلني عنه أكثر من بضع بوصات، بحيث كان بإمكاني أن أستشعر صدره حيال رأسي، كما يفعل صغيرُ الكنغر وهو يُبْرِز رأسه من جراب أمه.

بقي أشرف معنا، على حين شَرَدَ حسين عن الركب. وبعد ساعةٍ ونصف من المسير إياباً إلى خيمتنا، لشدَّ ما كان سرورُنا عظيماً عندما وجدناه يتحدَّث بحماسٍ واندفاع إلى أفرادٍ آخرين من المجموعة. كثيرون طلبوا أن يستتيبوه في رمي الجمار؛ فقد كانوا راغبين عن العودة إلى موقع الرمي تهيُّباً وضعفاً في آنٍ معاً. ووافقنا من ثم أن نكون وكلاءهم في إتمام هذا المنسك. وفي اليوم التالي انطلقنا باكراً والحصيات بأيدينا، آملين استباق زحام ما بعد الظهر، والعودة قبل احتدامه. ومن عجبٍ أن أحداً لم يلقَ حتفه على مدى أيام الرجم كلِّها تلك السنة. على أن الخسائر في الأرواح قبل تلك السنة بلغت

نسبةً مقلقةً حملت العلماءَ في المملكة العربية السعودية ومصر على اقتراح تمديد ساعات الرجم بصورةٍ تمكّن الحشودَ من الخروج في ساعات الصباح النديّة قبل اشتداد الحرّ، وفي ساعات ما بعد الظهيرة اللاهبة كذلك.

مجتمع يتخطّى الحدودَ القومية

ما إن أدركنا آليةَ العمل حتى رأينا أسلوبَ فريقنا غير الرسمي يُحتذى من كلِّ مَنْ حولنا. وبديهيٌّ ألا تكون المجموعاتُ الصغيرةُ بارزةً بروزَ الوحدات الكبيرة التي سافرت على متن طائرةٍ واحدة، أو قَدِمَت من قرىً مجاورة. ومع ذلك فإن المجموعات غير الرسمية تمثِّل مفتاحَ تنظيم الحياة اليومية داخل الحملات الكبرى التي تتجمهر حول أعلامها الوطنية وتتزيّا بلباسٍ مميَّز.

وبقدر ما أُعْجِبَ الجميعُ بدقة تنظيم الحجيج القادمين من سنغافورة، ساءتهم فوضى الحجاج النيجيريّين. فنساء سنغافورة كنَّ ينتظمن في زيٍّ واحدٍ يتألف من خِمارٍ أبيضَ وثوبٍ فضفاضٍ يحمل رمزاً زاهياً من أعلامٍ حمراء وبيضاء خِيْطَت على الظهر بحيث تؤلِّف علامةً فارقةً تميِّز بها إحداهنَّ عن الأخرى من بُعد. وحيثما ولَّيتَ وجهك ميَّزتَ هؤلاء الذين هم أصغر الحجيج أجساداً في أكبر المجموعات عدداً. ولا يمكن أن ترى منهم مجموعاتٍ تقلُّ عن العشرين، يندفعون بخفّةٍ متشابكي الأيدي عند اللزوم حرصاً على تماسك صفوفهم.

أما النيجيريّون فتراهم دوماً مبعثرين تحت الأقدام. فمنذ لحظة خروجنا من الطائرة في مطار جُدَّة، وجدناهم مستلقين على الأرصفة بلا نظام، مستسلمين لنومٍ عميق، يحاول المارّة تحاشي التعثُّرِ بهم أو رَضِّ رؤوسهم. بل إن رجالهم – وهم أفقر الحجيج طرّاً – كانوا، بدافعٍ من فقرهم، يحوِّلون المدن المقدسة إلى مهجعٍ هائلٍ في الهواء الطلق، ويخيِّمون خلف المساجد وفي الطرقات، متَّخذين من الصناديق المصنوعة من الورق المقوّى فُرُشاً لهم، أما النساء النيجيريات فذوات همَّةٍ وجرأة: فسرعان ما يُقِمْنَ

أسواقاً آنيةً عند كلِّ منعطف، يَعْرِضْنَ فيها من الثياب الملّونة ما يُباع بسرعةٍ فائقة لا يُضطر معها رجال الأمن في الغالب إلى التدخُّل لإبعادهن.

وكان سوادُ الحجيج، أمثالنا، وسطاً بين السنغافوريين الملتزمين والنيجيريين المتحرّرين من كل قيد: يرتجلون حلولاً لمشكلاتهم الصغيرة، متكيّفين مع يومهم الذي هم فيه، بعد أن ازدادت في نفوسهم الثقة وتعلّموا أن يتوقّعوا من الأمور ما ليس بالحسبان. وباختلاطنا مع حجّاج إندونيسيا وبنغلادش أدركنا مدى حذقهم في ابتداع طرائق من المرونة والتكيُّف لا تبدو جليَّة للغريب عنهم.

وقد اكتشفتُ حقيقةَ حجّاج بنغلادش في أثناء وقوعي في مواجهةٍ بمِنى، وكيف أنقذتني لباقتُهم من الخوض في نزاعٍ لا داعي له. ففي صباح حارّ، وبعد أن قضيتُ ساعةً أنتظر دوري لقضاء حاجتي وتفريش أسناني، تذكَّرتُ أن ذلك اليوم هو دوري في جلب الشاي لصحبي. وعندما اهتديتُ إلى أقرب خيمةٍ لبيع المرطبات هالني ما رأيت؛ وجدتُ نحواً من خمسين حاجّاً متململين يتملكهم النعاس هنا وهناك ينتظرون حضورَ عاملَيْن مسؤولَيْن عن غلي الماء. وعند أقصى الخيمة ثمة ثلاثة مراجل ضخمة موضوعة على مواقد غاز تنتظر من يؤدي العمل.

وكان عليَّ الانتظار في رتلٍ لا نهاية له. لكن أين هو ذلك الرتل؟ عندما استفسرتُ كيف أستطيع أخذ دوري فيه لم أجد إلا مَنْ يهزُّ كتفيه لامبالاةً قائلاً:"كلّنا في الانتظار". شعرت بالسخط وقلت غاضباً: "عظيم! لا يوجد رتل. أراهن أنكم لن تذوقوا طعم النظام حتى لو أتيح لكم على طبق من ذهب".

وبدلاً من أن يردّوا عليّ بالمثل، كم كان سروري غامراً عندما رأيتهم ينتظمون في ثلاثة صفوفٍ محكمة مقابل المراجل الثلاثة. وفي أقل من دقيقة علّموني درساً مزدوجاً دون النطق بكلمة واحدة: فقد حملوني أولاً على ضبط نفسي والنأي عن أي جدالٍ أو شجار يُفْسِدُ حجّي وحجّهم؛ ثم أظهروا لي

ثانياً أنهم أكثر انتظاماً بكثيرٍ ممّا بدا لي، وكأنهم متَّفقون على أن يعرف كلٌّ دورَه على الفور دونما حاجة إلى الانتظام في صفوف.

أما الحجاج الإندونيسيون فمعروفون بروح العمل الجماعي الذي تسعى حكومتُهم إلى تنظيمه في مجموعاتٍ رسميةٍ يديرها موظّفوا الحج؛ إذ يُقسَم ركابُ كلِّ طائرةٍ إندونيسية إلى مجموعاتٍ إقليميةٍ مزوَّدةٍ بزيٍّ مميَّز وحقائب مرمَّزةٍ بنظام تشفيرٍ لوني ومترابطةٍ ضمن سلسلةٍ واحدة. والحقُّ أن الإندونيسيين لا يتميزون بمظهرهم الفريد فحسب، بل بكرمهم وسماحة نفوسهم أيضاً.

فمن الأمثلة الكثيرة ما عاينتُه بنفسي في المسجد الحرام بمكة وقتَ صلاة الجمعة، حين تمكّنتُ مع سلطان وأشرف من حشرِ أنفسنا في المصعد المفضي إلى الطبقة الثانية، وشقِّ طريقنا باتجاه حاجزٍ من القضبان يشرف على الفِناء الرحيب. كان جُلُّ المبكِّرين في الوصول إلى المسجد من الإندونيسيين الذين اتّخذوا أماكنهم مؤلِّفين صفوفاً محكمةً غايةً في التراصّ. ومع ذلك، وحالما رأوا وفوداً قادمةً من المصلّين المتأخرين، أنشؤوا - بطريقة أو بأخرى - صفوفاً جديدة، مفسحين المجالَ لكلِّ قادمٍ يرغب في الانضمام إليهم، طيِّبةً بذلك أنفسهم.

بدت الخُطبةُ يومَها طويلةً جداً كأنها لن تنتهي أبداً، وصار الجميع مُرهقاً ذاوياً من شدّة الحرّ. وكان بجوار الحاجز برّادُ ماءٍ برتقاليُّ اللون ومعه أكوابٌ ورقية؛ إلا أنه كان بعيداً عن متناول كلِّ أحد ما خلا نحو مئةٍ من الإندونيسيين الجالسين حوله. ولمّا طلب بعضُ الحاضرين في الخلف ماءً كنتَ ترى الإندونيسيين يتناقلون الأكواب في جميع الاتجاهات دون أن ينالهم منها قطرةٌ واحدة. ومع أن الأكواب معدّة للاستعمال مرة واحدة فقط، فقد وَجَدَ معظمها طريقَه إلى البراد من جديد، لتعود دورةُ التوزيع ثانية، إلى أن نفد الماء. وبكل ما يقتضيه الإحساسُ بالواجب، أعيدت الأكوابُ إلى الموزّع

لإتلافها، فكانت سلة المهملات الموجودة قريباً من البرّاد فارغة تقريباً عند انتهاء الصلاة.

كانت آخرُ أيامنا في مكّة رخيّةً متمهِّلة؛ فانشغَلَ بعضُ الحجيج بالتسوّق والسياحة في معالم المدينة في الأيام التي سبقت فورة المغادرة، وحاول بعضُهم أن يعوِّض شيئاً مما فاته من النوم وأن يتذكر الإيقاعَ الطبيعي للنهار والليل. وكان حدوث أي هجومٍ إرهابيٍّ أبعد ما يكون عن أذهاننا.

ففي ذلك المساء عند انفجار أول قنبلة، كنت وأشرف نمرُّ بأحد مداخل السوق المركزية. وكنّا قد غادرنا فندقنا للتّو لشراء بعض المرطبات لصحبنا من نزلاء غرفتنا عندما انطلق هديرٌ جعلنا نرتبك ونتسمَّر في مكاننا. اتّجهت أنظارُنا إلى الأعلى وإلى اليسار بحثاً عن أي أثرٍ منظورٍ لما حدث. وما هو إلا أن سمعنا هديراً آخر قادماً من السوق تَلَتْه هزَّةٌ تشبه الزلزال. وفجأة راحت أمواجٌ من البشر تتدفق من السوق إلى الميدان في حالةٍ من الهرع والذعر متجهةً صوبنا.

وصادف وقوفُنا، أشرف وأنا، بين برجَي الإنارة اللذين يضيئان الميدان. فمَكثنا منبطحَيْن خلفهما نراقب وننتظر مدة خمس عشرة دقيقة، فيما كان آلاف الناس يندفعون حيالنا من كلا الجانبين.

وسرعان ما بدأ عقلي يخدعني، فتوهَّمت أنني أهيم بسلام سابحاً فوق حالة الهلع، وأنني عدتُ لا أقف في لجَّتها. والحقيقة أنه اعتراني ما اعترى الحشودَ الشاردة تماماً، إلا أنني لما عجزتُ عن الفرار معهم أو بعيداً عنهم، تخيَّلتُ نفسي أحوم حولهم.

وبأعجوبة لم يسقط في هذا الحادث أحد ولم يوطأ أحدٌ بالأقدام. وبعد ليلتين انفجرت قنبلةٌ أخرى في منطقةٍ أبعد من الأولى، إلا أننا كنا هذه المرة في رواق الفندق نودِّع أصدقاءنا الذين يزمعون السفرَ في اليوم التالي. وقيل إن عدداً من الناس جُرِحوا وقُتِل حاجٌّ باكستانيٌّ واحد. وألقت السلطاتُ

السعوديةُ القبضَ على تسعةٍ وعشرين من الكويتيين الشيعة، وتبيَّن أنهم قاموا بتهريب المتفجرات لبثِّ البلبلة في أثناء موسم الحج. وفي غضون شهرين علمنا أن ستة عشر منهم قد أُعدِموا وأن أربعةً آخرين أُنزلت بهم أحكامٌ بالسجن طويلة الأمد[8].

وتحقَّقنا مجدَّداً أن من المتعذِّر حماية الحجاج حمايةً تامة، وأن كلَّ ما بإمكان الحكومة فعله هو توفير الخدمات الأساسية ومعاقبة المسيئين. أما الإجراءاتُ الأخرى فمسؤوليتنا نحن. وبالفعل بقيت مجموعتُنا تحرص على التماسك واليقظة في وجه أي خطرٍ محتمل، حتى آخر يومٍ لنا في مكة المكرمة. وعندما عاد أقراني من طواف الوداع رَوَوْا وقائع لأحداثٍ مختلفةٍ عاينوها.

واستطاع سلطان أخيراً، وبعد أسابيع من المحاولات غير الناجحة، أن يستلم الحجر الأسود فيهنأ بتقبيله. على أن من المؤسف حقاً أن "الأخَوين أوهايو"، اللذين كانا من خلفي لا يفصلني عنهما أكثر من بضع أقدام، فَقَدا ما كانا يحملان من مالٍ في وطأة الزحام. ولم ينسَ سلطان بالطبع أن يتباهى، وقد استَخفَّتْه السعادةُ الغامرة لدى عودته إلى الفندق، بما حقّق من إنجاز، مشجِّعاً صحبَه الذين لم يسعفهم الحظ، وهم يصغون إليه بكلِّيَّتهم ويختلسون النظر من أَسِرَّتهم نحو الخارج وقد بدا عليهم الذهول والاضطراب، إلا أنهم سالمون لم يَمْسَسْهم أذى.